تعظيم قدر الصلاة وبيان فضائلها

إعداد
إمام بن علي الأثري

تعظيم قَدْر الصلاة وبيان فضائلها

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ تَعَالَى فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «طريق الهجرتين»: «أخبر صلى الله عليه وسلم أن قُرَّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته، إنما هو في الصلاة».

فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر في هذا الحديث أن قرة عينه وفرحه وسروره وبهجته إنما تكون في الصلاة، ولذلك صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ».

وعن ثابت البناني رحمه الله أنه قال: «الصلاة خدمة الله في الأرض، ولو علم شيئًا أفضل من الصلاة ما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾». وهذا يدل على أن أشرف مقام يقومه العبد في هذه الدنيا هو مقام العبودية لله تبارك وتعالى بإقامة الصلاة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق المقام الأول ـ وهو القيام بين يدي الله في الصلاة ـ هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ـ أي: الصلاة ـ ولم يوفِّه حقه، شدد عليه ذلك الموقف ـ أي: يوم القيامة». وهذا كلامه في كتاب «بدائع الفوائد».

الكلمةُ التي أُلقيها بين أيديكم ـ أيُّها الإخوة ـ هي مجموعةٌ من كتاب الإمام محمد بن نصر المروزي، أحد الأئمة الذين كانوا على منهاج النبوة، وهو أحد كبار علماء الشافعيَّة رحمه الله تعالى

له كتابٌ اسمه تعظيم قدر الصلاة، طُبع في مجلدين، وفي بعض الطبعات طُبع في مجلد واحد

فهذا الذي سأذكره عليكم هو مُلَخَّصٌ ومنتقًى من هذا الكتاب العظيم: تعظيم قدر الصلاة.

وهذا الكتاب -أيها الأفاضل- ممَّا يُبيِّن عناية السلف بأمر الصلاة، حتى إنهم ألَّفوا فيها المؤلفات

والإمام ابن القيم له كتاب في الصلاة طُبع باسم: «الصلاة وحكم تاركها».

وسأذكر لكم في هذه الكلمة عشرين فائدة، تُدلِّل على عِظَم قدر الصلاة.

الفائدة الأولى ممَّا يدل على تعظيم قدر الصلاة: أنها أول فريضة بعد الإخلاص والتوحيد.

فأول فريضة أمر الله بها بعد تحقيق الإخلاص والتوحيد هي الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «فَإِنْ تَابُوا» أي: خلعوا الأوثان وعبادتها. قال: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

فجعل الله تبارك وتعالى -بعد النطق بالشهادتين- الصلاة مقرونةً مع التوحيد، وجعلها عنوان الأخوة في الدين.

وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

فاشترط إقامة الصلاة في إخلاء السبيل بعد النطق بالشهادتين

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ»

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «فَإِنْ شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا، حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ»

فقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، وحديث: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ...»؛ كل هذا يدل على أن من أهم المهمات: تحقيق التوحيد، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

فإيتاء الزكاة مع عبادة غير الله لا ينفع صاحبه، فمن كان مصليًا، مزكيًا، معتمرًا، حاجًّا، مجاهدًا، تاليًا للقرآن، متصدقًا، بارًّا بوالديه، وصولًا لأرحامه، لكنه يدعو الأولياء والصالحين، ويطلب المدد، ويقول: مدد يا بدوي، مدد يا حسين، ويذبح لهم، ويطوف بقبورهم، ويسجد على أعتابهم؛ فهذا قد ضيَّع عباداته. لأن الله تبارك وتعالى اشترط لقبول الأعمال تحقيق التوحيد

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الشرك يُحبط الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. والشرك يوجب الخلود في النار، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾

والشرك لا يغفر لصاحبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

فمن حقق التوحيد بأن أفرد الله تبارك وتعالى بالعبادة، فجعل صلاته، وصيامه، وزكاته، وحجه، وعمرته، ودعاءه، وذبحه، ونذره، وطوافه بالكعبة، وجعل هذه العبادات لله وأفرد الله بها، وخلع كل معبود يُعبد من دون الله؛ من ملك مقرَّب، أو نبي مرسل، أو ولي صالح؛ فهذا الذي تنفعه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فهذا أمر ينبغي أن نتنبه له جيدًا.

لا بد للمسلم أن يسعى في تحقيق التوحيد، وأن يعبد الله تبارك وتعالى مخلصًا له الدين؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، لأن هذا حق خالص لله، لا لملك مقرَّب، ولا لنبي مرسل، ولا لعبد صالح. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

حتى لا يظن أحد إننا نحارب الأولياء، لالا، فالقضية ليست قضية أولياء، ولسنا نحارب الأولياء، فالأولياء عند ربهم، ولا يعلمهم إلا الله، لكن القضية قضية المحافظة على حق الله على العبيد، وهو عبادته وحده لا شريك له.

الفائدة الثانية مما يدل على تعظيم قدر الصلاة: أن الله تبارك وتعالى جعل أول عبادة تُفرض على العباد بعد تحقيق التوحيد هي الصلاة

ولما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وفي رواية: «أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ»، «فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدلج للناس في غزوة تبوك، ثم قال: «يَا مُعَاذُ، إِنْ شِئْتَ حَدَّثْتُكَ بِرَأْسِ هَذَا الْأَمْرِ وَقِوَامِهِ». قلت: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: «إِنَّ رَأْسَ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَشْهَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنَّ قِوَامَ هَذَا الْأَمْرِ إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْبَلُ مَنْ أَجَابَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ». قال رضي الله عنه: «وكانتا فريضتين على من أقرَّ لمحمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام». ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذ لَم تَفعَلوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيكُم فَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ﴾. وذكر أهل العلم أن الصلاة ذُكرت في القرآن أكثر من مئة مرة. فهذه هي الفائدة الأولى.

الفائدة الثالثة -وهي فائدة عظيمة جدًا لمن يتأملها- **مما يدل على عِظَم قدر الصلاة:** أن الله تبارك وتعالى افترضها على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۝ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. فانظروا بماذا أمره بعد إفراد الله بالعبادة؟ أمره بإقامة الصلاة. ففي شريعة موسى كانت الصلاة موجودة.

وورد أيضًا في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَرَرْتُ بِمُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ».

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما أُسري به إلى بيت المقدس قال: «مَرَرْتُ بِقَبْرِ مُوسَى، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ».

وهذه الحياة في القبر حياة برزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، لكن الشاهد هنا أن موسى يصلي في قبره

وكذلك السحرة، سحرة فرعون، لما آمنوا بعد شركهم وعنادهم، ما أول شيء فعلوه؟، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

قال الإمام المروزي رحمه الله: «فلم يجعل الله لهم مفزعًا إلا الصلاة مع الإيمان به».

وأول ما أُمر به موسى أن يأمر به بني إسرائيل -بعد أن آمنوا به- الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. فأمرهم بماذا؟ أمرهم بإقامة الصلاة

كذلك افترضها الله تبارك وتعالى على عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد صبيًّا، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وافترضها على إبراهيم عليه السلام، فإنه لما ذهب بإسماعيل فأسكنه بوادٍ ليس به أنيس دعا ربه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. فلم يذكر عملاً غير الصلاة، فدلَّ ذلك على أنه لا عمل أفضل من الصلاة ولا يوازيها

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. قال قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾، قال: «طهِّره من الشرك وعبادة الأوثان». وقوله: ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ قال: «القائمون هم المصلون»

وافترضها سبحانه وتعالى أيضًا على إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وزكريا، عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبنا لَهُ إِسحاقَ وَيَعقوبَ نافِلَةً وَكُلًّا جَعَلنا صالِحينَ ۝ وَجَعَلناهُم أَئِمَّةً يَهدونَ بِأَمرِنا وَأَوحَينا إِلَيهِم فِعلَ الخَيراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإيتاءَ الزَّكاةِ وَكانوا لَنا عابِدينَ﴾.

وفعل الخيرات هنا يشمل جميع الخيرات من حقوق الله وحقوق العباد، ثم عطف بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لبيان شرف الصلاة والزكاة، فهو من عطف الخاص على العام.

وإلا فالصلاة والزكاة داخلتان في فعل الخيرات.

فالصلاة تتعلق بحق الله، والزكاة تتعلق بحقوق العباد.

ولذلك قال المفسرون: الخيرات هنا تشمل حق الله وحقوق العباد، وهذا يدخل فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف الصلاة والزكاة لبيان شرفهما وفضلهما

فالصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه سبحانه وتعالى، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان إلى خلقه.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

كذلك افترضها الله تبارك وتعالى على يونس، فقد قصَّ الله تبارك وتعالى عن يونس حين التقمه الحوت فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلين.

وقال قتادة رحمه الله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، «كان كثير الصلاة في الرخاء فنجَّاه الله». وقال أيضًا: «لولا الصلاة لكان الحوت قبره إلى يوم القيامة».

فانظروا -أيها الأفاضل- كيف أن عبادة الله تنفع العبد في الشدائد. وهذا مثال يونس، التقمه الحوت، فلم يكن له مفزع ولا منجى إلا بصلاته، فأكرمه الله تبارك وتعالى بكثرة صلاته، فأنجاه من بطن الحوت، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، الآية للبث في بطنه إلى يوم يبعثون.

وكذلك افترضها الله تبارك وتعالى على شعيب، فلما نهى قومه عن عبادة غير الله، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والميزان، قالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. فهو كان معروفًا بالصلاة في قومه.

قال المروزي رحمه الله: «وفي ذلك دليل على أنهم لم يكونوا يرونه يعظم شيئًا من الأعمال تعظيم الصلاة، ولذلك ذكروها من بين الأعمال التي يعملها شعيب عليه السلام».

كما أن الله تبارك وتعالى افترضها على نوح وعلى جميع الأنبياء من بعده. قال الله سبحانه وتعالى ـ بعد أن ذكر الأنبياء في سورة مريم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

فأُخبر عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلى الصلاة، يعبدون الله ويتقربون إليه بها».

ثم توعد الله تبارك وتعالى في الآية التي بعدها توعد بالعذاب من أضاعها، وسهى عنها، أو صلاها في غير وقتها، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وهل هناك ارتباط بين اتباع الشهوات وتضييع الصلاة؟ نعم. كل من انغمس في الشهوات أضاع الصلاة. ولذلك تجد كثيرًا من الناس منغمسين في الشهوات، فإذا تأملت وجدت أنهم ليسوا من أهل الصلاة. فالانغماس في الشهوات لا يستقيم مع إقامة الصلاة.

لماذا يا إخوة؟ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فالذي ينغمس في الشهوات معنى ذلك أنه ضيع الصلاة، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

وعن مصعب بن سعد أنه قال: قلت لأبي ـ وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: يا أبتِ، أرأيت قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أيُّنا لا يحدث نفسه؟

هو أَخَذ بظاهر الأية، أن الإنسان إذا سهى في صلاته، كما يقولون العوام هذا بيسرح في الصلاة، ظن أن هذا وعيد لمن يسرح في الصلاة ويتذكر أمور الدنيا وغير ذلك. فقال لأبيه: «أيُّنا لا يحدث نفسه؟» فقال له أبوه: «ليس ذلك، ولكنه إضاعة الوقت».

يعني: يصلون بعد خروج الوقت، فيصلي الفجر بعد طلوع الشمس، ويصلي العصر بعد غروب الشمس، ويصلي العشاء بعد نصف الليل، أو يجمع بين الصلاتين لغير عذر. فكل هذا من السهو عن الصلاة الذي توعد الله تبارك وتعالى عليه في سورة الماعون.

وحكى الله تبارك وتعالى عن الكفار أنهم لما سُئلوا ـ بعد دخولهم النار ـ فقيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾. قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾. فلم يذكروا شيئًا من الأعمال عُذِّبوا عليه قبل تركهم الصلاة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفعَل ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخاسِرونَ﴾.

قال الضحاك رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال: «هي الصلوات الخمس».

وقال سفيان الثوري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال: «كانوا يشترون ويبيعون، فلا تشغلهم عن مواقيت الصلاة».

الفائدة الرابعة مما يدل على عِظَم قدر الصلاة: أنَّ الله تبارك وتعالى وَبَّخَ الكفار على تركها.

قال الله تبارك وتعالى فيما يوبخ به الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾.

قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾، فلم يضم إلى التصديق شيئًا غير الصلاة. ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، فالتكذيب ضد التصديق، والتولي ترك الصلاة.

ثم أوعده وعيدًا بعد وعيد، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾. يعني: الويل لك، الويل لك. وقيل: إن هذه الآية نزلت في أبو جهل عليه لعنة الله

قال قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾، قال: «لا صدق بكتاب الله، ولا صلى لله»، ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كذب بآيات الله، وتولى عن طاعته، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: يتبختر، وهي مشية عدو الله أبي جهل. فقال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾. قال: «وعيد على إثر وعيد».

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلاة هي العلامة الفارقة بين الكفر والإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام: «بينَ العبدِ، وبينَ الكُفرِ والإيمانِ الصَّلاةُ فإذا ترَكَها فقَد أشرَكَ».

وقال عليه الصلاة والسلام: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَاةِ كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وهذا مما يبين عِظَم قدر الصلاة، وأنها سبب في النجاة من عذاب الله، فأهل النار من المسلمين إذا دخلوا النار، فإن النار تأكل كل شيء إلا مواضع السجود، كما سيأتي معنا. وهذا يبين أن أمر الصلاة من الأهمية بمكان. والمسلم مهما وقع فيما يقع فيه من ارتكاب المعاصي، لا ينبغي له أن يترك الصلاة.

بعض الناس إذا أسرف على نفسه في المعاصي ترك الصلاة، وهذا خطأ. لا تضيّع الصلاة، فالصلاة تُرجعك إلى الله تبارك وتعالى، فلا تزد البلاء بلاءً.

قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَاةِ كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ مَعَ قَارُونَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ».

الفائدة الخامسة مما يبيِّن عِظَم قدرالصلاة: مَدْحه سبحانه وتعالى للمُصلِّين.

يقول الإمام محمد بن نصر المروزي رحمه الله: «نعت الله المؤمنين في أول سورة البقرة فقال: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. فلم يبدأ ـ بعد الإيمان بالغيب ـ بذكر فريضة قبل الصلاة».

كذلك مدح الله عباده المؤمنين، فبدأ بذكر الصلاة قبل كل عمل. قال الله تبارك وتعالى في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. فأول صفة مدح بها المؤمنين: الصلاة والخشوع فيها.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. فذكر المصلين في أول الآيات، وذكر المصلين في آخر ثنائه على المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾، قالوا:«يرث المؤمنون الكفار يوم القيامة منازلهم في الجنة».

وما معنى هذا الكلام؟ في حديث أبو هريرة رضي الله عنه عند ابن ماجه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ الْكَافِرُ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ». وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾. فالذين يرثون الفردوس ـ وهو أعلى الجنة ـ من أعظم صفاتهم إقامة الصلاة والخشوع فيها.

ومما مدح الله تبارك وتعالى به المصلين ما ذكره سبحانه وتعالى في سورة المعارج، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. أي: مداومون عليها في أوقاتها، بشروطها وأركانها.

ما معنى هذه الآية؟ قال المفسرون: قد فصَّل الله تبارك وتعالى الهَلُوعَ، فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾. قالوا: يجزع إذا أصابه فقر، أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال، أو أهل، أو ولد، ولا يستعمل الصبر. هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾. فإذا أُصيب بمرض، أو بفقد حبيب إليه، أو بخسارة في تجارة، أو بهلاك مال؛ فإنه يجزع ويسخط ولا يصبر

وفي المقابل: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. أي: إذا أنعم الله عز وجل عليه، فإنه لا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر نعمه. ثم استثنى الله تبارك وتعالى المصلين من هذه الصفة الذميمة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾. فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله وأنفقوا، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

فانظروا إلى فائدة الصلاة. فالصلاة تقوي الإيمان، وتصبر العبد على المصائب. وسيأتي معنا شيء من هذا من كلام السلف. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة صلى الله عليه وسلم.

الفائدة السادسة ممَّا يدل على عِظَم قدر الصلاة: أن الله تبارك وتعالى جعلها كفارةً للذنوب والخطايا فلم يخصَّ الله تبارك وتعالى عملًا من أعمال الدين، فجعل به تكفير الخطايا وتطهير المذنبين، كما خصَّ الصلاة بذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. ما المراد بالحسنات هنا؟

قال المفسرون: هذه الآية نزلت في الصلوات الخمس. وهذه الآية سيأتي تفسيرها الآن، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في صحيح صحيح مسلم، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، إني عالجت امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها»

يعني: اختلى بامرأة، وضمها وقبَّلها، إلا أنه لم يرتكب معها الفاحشة. قال: «إني عالجت امرأةً في أقصى المدينة»

وانظروا كيف يدل هذا الكلام على طهارة قلوب الصحابة، فلم يكن أحدهم يجد أدنى حرج أن يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: فعلت كذا، فما كفارته؟

مِثْلُ الرجلِ الذي جامع امرأته في نهار رمضان، فذهب إلى قومه، فقال: تعالوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقصص عليه ما حدث. فقالوا: اذهب أنت بمفردك. فقال: «يا رسول الله، هلكت». قال: «وما أهلكك؟». قال: «وقعت على امرأتي في نهار رمضان». فكانت قلوبهم صافيةً طاهرةً نقية.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تَجِدُ ما تُعتِقُ رَقَبةً؟». قال: لا.

قال: «فهل تستطيعُ أنْ تَصُومَ شَهرَينِ مُتَتَابعَينِ؟». قال: لا.

قال: «فهل تَجِدُ مَا تُطعِمُ سِتِّينَ مسكينًا؟». قال: لا.

فبينما هو جالس جاء الفرج من الله، فجاء رجل بصدقة بعِرْقٍ من تمر. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «خُذْ هذا، فتَصَدَّقْ بِه».

يعني: كفارةً تُطعِم بها ستين مسكينًا.

قال: «يا رسول الله، أعلى أفقرَ مِنِّي؟ فما بين لابَتَيْهَا أهلُ بيتٍ أفقرُ من أهل بيتي».

بَنَى على غالب ظنه أنه لا يوجد في المدينة أفقرُ منه، فتبسَّم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»، فرجع إلى قومه، وقال: «وَجَدتُ عندكم الضِّيق، ووَجَدتُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السَّعَة والفَرَج».

فانظروا -يا إخوة- إلى صدق العبد في التوبة، كيف يفتح الله تبارك وتعالى له سبل الفَرَج، فهذا الرجل قال: «إني عالجت امرأة».

وطبعًا هذا كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يسأل عن الحكم، أما الآن فالواجب على المؤمن إذا أذنب ذنبًا أن يستتر بستر الله تعالى، ولا يفضح نفسه.

قال: «إني عالجت امرأةً في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها». يعني: دون الجماع.

فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لقد سترك الله، لو سترت نفسك».

ولم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا فدعاه، فتلا عليه هذه الآية - نزلت الآية بشأن هذا الرجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾.

فالشاهد أن حضور هذا الرجل للصلاة كان كفارةً لما وقع منه مع هذه المرأة. ولذلك أورد هذا الحديث الإمام محمد بن نصر المروزي تحت عنوان: تكفير الصلوات للخطايا.

وفي هذا -يا إخوة- أن العبد إذا أذنب ذنبًا قام فصلى ركعتين. وهذا وارد في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ».

إخواني الأفاضل: مَن مِنَّا يفعل ذلك؟ كلنا مذنب، وصاحب ذنب، فمَن مِنَّا إذا أذنب، أو ضيَّع صلاةً عن وقتها، أو وقع في كذب، أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله؟ مَن يفعل هذا؟ القليل مَن يتنبَّه لهذا.

فقال رجل: «يا نبي الله، هذا له خاصة؟»

يعني: من أذنب ذنبًا وحضر الصلاة يُكفَّر له، هل هذا خاص بهذا الرجل؟ قال صلى الله عليه وسلم: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً».

وعن محمد بن كعب القرظي رحمه الله أنه قال في قوله سبحانه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾، قال: «طرفا النهار: الفجر، والظهر، والعصر، وزلفًا من الليل: المغرب والعشاء».

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. يعني: هذه الصلوات الخمس التي تؤدى في طرفي النهار وفي الليل. ومما يشهد لهذا التفسير حديث أبو هريرة رضي الله عنه، عند صحيح مسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ».

وعن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ الآية

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ عَلَى بَابِهِ نَهْرٌ جَارٍ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ». قال الحسن البصري رحمه الله: «فماذا يُبقي ذلك من درنه؟». فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن، ما اجتُنبت به القتل». وهذه إشارة إلى الكبائر؛ لأن القتل من الكبائر، فالصلوات الخمس كفارات.

ثم قال: «يصبح الناس فيصلون صلاة الفجر، ثم يجرحون ما بينهم وبين الظهر». يعني: يقعون في الذنوب والمعاصي. «فيتوضأ الرجل، فيكفِّر الوضوء الجراحات الصغار». فما يقع من العبد من ذنوب صغائر بين الفجر والظهر، إذا توضأ لصلاة الظهر مُحيت تلك الذنوب.

ثم ذكر العصر والمغرب والعشاء. ثم قال: «ثم ينزل الناس بعد العشاء ثلاثة منازل:

(1) قسمٌ له ولا عليه.

(2) وقسمٌ عليه ولا له.

(3) وقسمٌ لا له ولا عليه».

قال أبو عثمان النَّهْدي لسلمان: ما له ولا عليه؟ وعليه ولا له؟ ولا له ولا عليه»؟

قال: فنظر إليَّ، وقال يا ابن أخي: «يغتنم الرجل ظلمة الليل وغفلة الناس عنه، فيقوم فيصلي، فذلك له ولا عليه». يعني: الصلوات محت الذنوب، ثم اكتسب أجرًا آخر بقيام الليل.

وقال: «ويغتنم الرجل ظلمة الليل وغفلة الناس عنه، فيسعى في معاصي الله، فذلك عليه ولا له». يعني: ختم ليله بالسوء.

وقال: «وينام الرجل حتى يصبح، فذلك لا له ولا عليه». أي: صلى العشاء ثم نام.

وانظروا -يا إخوة- إلى حال السلف في الليل بعد الوتر: يقول عثمان رضي الله عنه: «جُعلت الصلوات كفارات، يصلي الرجل الفجر، ثم يحرق نفسه إحراق النار

اليابس، فإذا صلى الظهر أطفأها، ثم الصلوات على هذا حتى يبلغ العشاء الآخرة». قال: «فكانوا يكرهون السمر بعدها، ويحبون أن يناموا»

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: «تكلمت بشيء بعد العشاء الآخرة، فقلت: ما ينبغي لي أن أنام على هذا، فقمت فتوضأت وصليت ركعتين واستغفرت الله». ثم قال: «وما قلت هذا لأزكي نفسي، ولكن ليُعمل به».

وعن القاسم بن أبي أيوب قال: كان سعيد بن جبير رحمه الله: أنه كان يصلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات. قال: «فأكلمه وأنا معه في البيت، فما يراجعني الكلام».

وعن خيثمة بن عبد الرحمن رحمه الله قال: «كانوا يحبون إذا أوتر الرجل أن ينام».

وعن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أمر بحوائج الناس، فإذا أوتر كفَّ». نعم، هذا حال السلف في الليل.

ومما ورد أيضًا في أن الصلاة كفارة: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»

والإمام محمد بن نصر المروزي علَّق على الآثار التي وردت عن السلف في أنهم كانوا لا يتكلمون بعد أن يوتروا ويناموا، فقال: «قال بعض أهل العلم: إنما نُهي عن السمر بعد العشاء الآخرة؛ لأن مصلي العشاء الآخرة قد كُفِّرت عنه ذنوبه بصلاته، فنُهي أن يسمر في الحديث مع الناس؛ خوفًا أن يكون في كلامه ما يدنس نفسه بالذنب بعد طهارتها».

وهذا -يا إخوة- فيه أدب لنا جميعًا أن نتأدب بهذا الأدب، فالسَّمَر إذا كان في مباح أو في مستحب فهو خير، لكن اجعل آخر ليلك بماذا؟ بصلاتك، ثم تنام على صلاة .

الفائدة السابعة مما يدل على عِظَم قدر الصلاة: أن الله تبارك وتعالى اشترط النظافة لأدائها. يقول الإمام المروزي: ومن الدليل على أنها أرفع الأعمال أن الله تبارك وتعالى أوجب ألَّا تُؤدَّى إلا بطهارة الأطراف، ونظافة الجسد كله، وباللباس، وبنظافة البقعة.

فالمصلِّي مأمور بالطهارة من الحدث والنجس، مأمور بالطهارة من الحدث الأصغر أو الحدث الأكبر، ومأمور بالطهارة من النجاسة في بدنه، وفي ثوبه، وفي البقعة التي يصلي فيها، ومأمور بستر العورة. هل توجد عبادة من العبادات اشترطت لها الطهارة بهذا الشكل إلا الصلاة.

الفائدة الثامنة مما يدل على عِظَم قدر الصلاة: أنها تُؤدَّى بجميع الجوارح، فجميع الجوارح تقوم بأداء الصلاة، بما فيها القلب

يقول الإمام المروزي: ومن الدليل على عِظَم قدرها وفضلها على سائر الأعمال أن كل فريضة افترضها الله إنما افترضها على بعض الجوارح دون بعض.

فالصيام: امتناع عن الأكل والشرب والشهوة، لكن هل فيه امتناع عن الكلام؟ لا.

والحج: هل فيه امتناع عن الكلام؟ وهل فيه أمر بالطهارة؟ لا.

فإنما افترضها على بعض الجوارح دون بعض، ثم لم يأمر بإشغال القلب به إلا الصلاة، فإنه أمر أن تُقام بجميع الجوارح كلها، فأشغل قلبه بها؛ ليعلم ما يتلو وما يقول فيها، ولم يفعل ذلك بشيء من الفرائض.

فإن الصائم له أن يلتفت، وينام، ويتكلم بغير ذكر، ويعمل بجوارحه، والمقاتل في سبيل الله قد أبيح له أن يتكلم كذلك فيما بين ذلك، وينام، ويشتغل بما أحب من منافع

الدنيا المباحة له، وله أن يتكلم في الطواف، وكذلك إعطاء الزكاة وجميع الطاعات، له أن يعمل فيها ويتفكر في غيرها، ومنع المصلي من الأكل والشرب وجميع أعمال الدنيا، ومن الالتفات والأفعال بالجوارح إلا ما كان من جنس الصلاة وحدها، وأمر بالخشوع فيها

ولذلك جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنَّ أحدَكُم إذا قام في صلاتِه، فإنَّهُ يُناجِي رَبَّهُ، أو إنَّ رَبَّهُ بينَهُ وبينَ القِبْلةِ».

وفي الحديث: «إنَّ اللهَ يأمُرُكم بالصلاةِ فإذا صلَّيتُم فلا تلتفِتُوا، فإنَّ اللهَ ينصِبُ وجهَه لوجْهِ عبدِه في صلاتِه ما لم يلتفتْ». وفي رواية: «فإذا نصبتم وجوهكم فلا تلتفتوا، فإن الله لا ينصب وجهه لوجه عبده حتى ينصرف».

والالتفات في الصلاة ـ كما ذكر ابن القيم وغيره ـ إما أن يكون التفات القلب، وإما التفات الجوارح.

ولذلك لما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة، يلتفت يمينًا ويسارًا، قال: «هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ العَبْدِ».

وعن علي رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، قال: الخشوع خشوع القلب، وأن لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا.

وعن الحسن قال: «إذا قمت إلى الصلاة فقم قانتًا كما أمرك الله، وإياك والسهو والالتفات، أن ينظر الله إليك وتنظر إلى غيره، تسأل الله الجنة، وتعوذ به من النار، وقلبك ساهٍ، ولا تدري ما تقول بلسانك».

وعن الزهري في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، قال: هو السكون في الصلاة.

وعن مجاهد قال: «كان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع».

ذكروا في ترجمة منصور بن المعتمر ـوهو من كبار العُبَّاد، ومن أئمة الحديثـ أنه كان يقوم على سطح بيته يصلي من الليل، فلما مات قال صبيٌّ لأمه: يا أمه، أين الوتد الذي كان ههنا؟ رضي الله عنه.

وعن ابن سيرين قال: «كانوا يستحبون أن ينظر الرجل في صلاته إلى موضع سجوده».

وعن أبي قلابة قال: «سألت مسلم بن يسار: أين منتهى النظر في الصلاة؟ قال: موضع السجود».

وعن سعيد بن جبير أنه قال: «التمطي في الصلاة من الشيطان».

ذكر العلماء أن التمطي هو أن يتقدم بصدره، قالوا: وهذا يتنافى مع الأدب، والتمطي في الصلاة من الشيطان.

خمس ينقصن من الصلاة: «الالتفات، والاحتكاك، وتفقيع الأصابع في الصلاة، والوسوسة، وتقليب الحصى، كل ذلك ينافي الخشوع»

وعن عبَّاد بن كثير قال: للمصلي ثلاث خصال: «تَحُفُّ به الملائكة من قَدَمَيه إلى عَنَان السماء، ويتناثر عليه البِرُّ من عَنَان السماء إلى مَفرَق رأسه، ويُنادي منادٍ: لو يَعلَمُ المُصلِّي مَن يُناجِي، ما التَفَت».

يقول ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»: «وروي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل: «ارفعوا الحجب بيني وبين عبدي»، فإذا التفت قال: «أرخوها»

قال ابن القيم: «وقد فُسِّر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره، فإذا التفت إلى غيره، أرخى الله تعالى الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان، وعرض له أمور الدنيا، وأَرَاه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل بقلبه على الله تعالى، ولم يلتفت، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فَرَّ إلى الله تعالى -يعني: دافع الوسوسة وأحضر قلبه- فَرَّ الشيطان، فإن التَفَت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه، وشأن عدوه في الصلاة».

وقال أيضًا: «الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله تعالى إلى غيره.

والثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه، ولا يزال الله تعالى مقبلًا على عبده ما دام العبد مقبلًا على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه. وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته فقال: «اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»

وفي ذلك يقول حسان بن عطية: «إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل على الله، والآخر ساهٍ غافل».

الفائدة التاسعة مما يدل على عِظَم قدر الصلاة: أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أداءها في أول وقتها أحب الأعمال إلى الله تعالى

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، «أي الأعمال أفضل وأحبها إلى الله؟ وأكرمها عند الله؟ قال: «الصلاة لميقاتها»

وهنا سؤال يتعلق بما ذكره الله تبارك وتعالى عن افتراض الصلاة على الأنبياء: كيف كانت صلاتهم؟ هل كانت صلاتهم مثل صلاتنا بشروطها وأركانها وأوقاتها أم لا؟

الذي جاء في القرآن ذكر الركوع والسجود، في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فذكر الركوع والسجود.

وقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. فصلاتهم كانت ذات ركوع وسجود.

الأمر الثاني: في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعَنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعْ سَقْفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا».

أي: لا يخرج معي إلى الجهاد مَن تعلَّق قلبُه بشيء من أمور الدنيا، رجل عَقَد على امرأة ولم يدخل بها، أو رجل عنده خَلِفَات من الغنم ينتظر نتاجها، أو رجل اشترى بيتًا ولم ينته من بنائه. لماذا قال: لا يخرج معي أحد من هؤلاء؟ لأن قلبه مُعلَّق بالدنيا.

قال: «فَغَزَا حَتَّى جَاءَ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ». وكان في شريعتهم أنه إذا غربت الشمس كفوا عن القتال، وهو إلى هذا الوقت لم يُفتح له، فدعا الله تبارك وتعالى أن يمسك الشمس حتى ينتهي من القتال، فأمسك الله له الشمس حتى انتهى من القتال.

فالشاهد في هذا الحديث ذكر صلاة العصر، وهذا يدل على أن عندهم صلاة، وكان فيها ركوع وسجود، وفيه ما يشير إلى أن الأوقات كانت كأوقات الصلاة عندنا؛ لأنه ذكر صلاة العصر.

وشيخ الإسلام ابن تيمية سُئل عن هذا: هل كانت الصلاة على من قبلنا من الأمم مثل ما هي عليه من الوجوب والأوقات والأفعال والهيئات أم لا؟ فقال: «كانت لهم صلاة في هذه الأوقات، لكن ليست مماثلة لصلاتنا في الأوقات والهيئات وغيرهما». يعني كان للصلاة وقت وحدود، لكن ليست على مثل الصلاة التي عندنا. هذه فائدة أحببت أن أذكرها لكم.

الفائدة العاشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة، وهي أنها أفضل الأعمال: وأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل أداءها في أول وقتها أحب الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي الأعمال أفضل وأحبها إلى الله وأقربها من الله؟ قال: «الصَّلَاةُ لِمِيقَاتِهَا»

وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ».

الفائدة الحادية عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ البيعة من أصحابه على إقامتها

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ». والحديث في الصحيحين. ما المراد بإقامة الصلاة؟ قال العلماء: المحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها وأوقاتها.

الفائدة الثانية عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أنها أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة من أعمال الجوارح

قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ أَتَمَّهَا وَإِلَّا نُظِرَ هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَتِ الْفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تُرْفَعُ سَائِرُ الْأَعْمَالِ عَلَى ذَلِكَ».

وفي رواية: «فَيَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ عَبْدِي، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ كَامِلَةً، وَإِنْ لَمْ يُكْمِلْهَا قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيُكْمَلُ بِهِ الْفَرِيضَةُ، ثُمَّ الزَّكَاةُ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»

وهذا فيه فائدة أن العبد لابد أن تكون له عناية بنوافل الصلاة، وعلى رأسها السنن الرواتب والوتر، لأن هذه النوافل إذا حصل. تقصير في الفريضة يُكمل بها النقص الذي وقع في الفرض.

الفائدة الثالثة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل الصلاة من أعمدة الدين التي لا يقوم الدين إلا بها.

ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.

قال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»

انظروا يا إخوة، النبي صلى الله عليه وسلم كان شديد العناية بالدعوة إلى ماذا؟ بالدعوة إلى التوحيد.

الآن الوُعَّاظ لا يتكلَّمون في التوحيد، لا يُعلِّمون الناس التوحيد، ولا أحكام الحلال والحرام، ولذلك من يستمع لهؤلاء القصاص والوعاظ لا يخرج بشيء، الذي يستمع إلى محمد حسان، محمد حسين يعقوب، أبي إسحاق الحويني، سيد حسين العفَّاني، عمر عبد الكافي، حازم شومان، أيمن صيدح، وفلان وفلان، هؤلاء لا يُعلِّمون الناس التوحيد، حتى أحكام الحلال والحرام ليس لهم بها عناية، عشرات السنين يدعون إلى الله، إلى أي شيء يدعون؟ إلى لا شيء، أخذوا الدعوة بكاءً وحزنًا وولولة، لكن هل صححتم العقيدة عند الناس؟ هل علمتموهم أحكام الحلال والحرام؟ للأسف لا.

قال: «تَعْبُدُ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ،وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ»، فقلت: أجل يا رسول الله، قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

الفائدة الرابعة عشرة ممَّا يدل على عظم قدر الصلاة: أن الله تبارك وتعالى أمر بالفزع إليها والاستعانة بها عند الشدائد، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

قال الإمام المروزي: وإنما بدأ بالصبر قبلها؛ لأن الإيمان وجميع الفرائض والنوافل من الصلاة وغيرها لا تتم إلا بالصبر.

لا بد من الصبر على فعل الواجبات، ولا بد من الصبر لترك الحرام، ولا بد من الصبر على ما يجد العبد من المشاق والمتاعب في فعل الواجبات وفي ترك المحرمات، ومن الصبر على أقدار الله المؤلمة، لذلك المسلم لا ينفك عن الصبر؛ لأن الصبر إما أن يكون صبرًا على طاعة الله، أو صبرًا عن معصية الله، أو صبرًا على أقدار الله المؤلمة، لذلك قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ ثم ذكر الصلاة لفضلها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

وعن علي بن الحسين أنه قال: نُعي إلى ابن عباس ابنٌ له وهو في سفر، فجاءه الخبر وهو في سفر أن ابنًا له مات، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: استعنا بالصبر في قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وبالصلاة، فنزل فصلى ركعتين.

وعن أم كلثوم بنت عقبة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قالت: غُشي على عبد الرحمن بن عوف غشية حتى ظنوا أن نفسه قد فاضت، يعني خرجت روحه، فخرجت امرأته إلى المسجد تستعين بما أُمرت به من الصبر والصلاة.

انظروا إلى هذه المرأة الصالحة، هذه الصحابية الجليلة، لما جاءها ما أصاب زوجَها ماذا صنعت؟ فزعت إلى الصلاة

قال الإمام المروزي: «ولقد ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى بأهله شدةً أو ضيقًا أمرهم بالصبر، وتلا هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

وأمر الله عباده أن يأتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم محمد صلى الله عليه وسلم إذا رأوا الآيات التي يُخاف فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا انْكَسَفَتَا فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ».

وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ».

وعن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح». ليلة بدر، يعني قبل الغزو.

وأيضًا الملائكة كانت إذا أصابها الخوف تفزع إلى الصلاة، ففي حديث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ» أو قال: «رَعْدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ»

إذا سمعوا صوت الله تبارك وتعالى يتكلم بالوحي، ويوحي إلى جبريل، أصابهم الخوف والوجل، ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني تغلغل الخوف حتى وصل إلى القلوب، «فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا». يبقى فزعوا إلى ماذا؟ فزعوا إلى الصلاة؛ لتسكن قلوبهم بسبب الصوت الذي سمعوه، وهو صوت الرب تبارك وتعالى.

الفائدة الخامسة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن جميع أعمال الصلاة توحيدٌ لله وتعظيمٌ له

لو تأملت في الصلاة تجد أن الصلاة هي ترجمة عملية لتوحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة، كيف ذلك؟ يقول الإمام محمد بن نصر المروزي: «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله؛ لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله، بماذا؟ بالتكبير: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، يعني لا أكبر ولا أعظم ولا أجلّ من الله تبارك وتعالى، هذا توحيد وتعظيم لله بالتكبير، ثم ثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، فهي حمد لله وثناء عليه وتمجيد له ودعاء.

وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع، كل ذلك توحيد لله وتعظيم له، وختمها بالشهادة لله بالتوحيد.

في الصلاة الإبراهيمية تقول: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ». ختمها بالشهادة له بالتوحيد، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة. قال: وركوعها وسجودها خشوعًا له وتواضعًا، ورفع اليدين عند الافتتاح وعند الركوع ورفع الرأس تعظيمًا لله وإجلالًا له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللًا له وإذعانًا بالعبودية».

ولذلك لما سُئل الزهري عن وضع اليمين على الشمال في الصلاة قال: «ذلٌّ بين يدي عزيز، ذلٌّ بين يدي عزيز».

الفائدة السادسة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن النار لا تأكل آثار السجود من أهلها إذا دخلوا النار بذنوبهم.

يقول الإمام المروزي: «ومن فضل الصلاة على سائر الأعمال أن من دخل النار من المؤمنين فإن النار لم تُصب مواضع السجود من المصلين». يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ». يُخرِجُ مَن؟ المُوحِّدين.

«فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ»، قال: «وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ».

الفائدة السابعة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أنها تُميِّز المؤمنين من المنافقين يوم القيامة، بالسجود يتميز المؤمنون عن المنافقين يوم القيامة، بماذا؟ بالسجود.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

ذلك أن المؤمنين لما نظروا إلى ربهم خرّوا له سجدًا، ودُعي المنافقون إلى السجود فأرادوا فلم يستطيعوا، حيل بينهم وبين ذلك عقوبةً لتركهم السجود لله في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي الدُّنْيَا إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾. وفي الحديث يقول الله عز وجل: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ مِنْ آيَةٍ تَعْرِفُونَهَا؟»، فيقولون: نعم. «فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا أَجْمَعُونَ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا سُمْعَةً وَلَا رِيَاءً وَلَا نِفَاقًا إِلَّا صَارَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا كَالْخَشَبِ، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ».

الفائدة الثامنة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: ما ورد من أحاديث وآثار في فضل السجود، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ أُتِيَ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا فَوُضِعَتْ عَلَى عَاتِقِهِ، فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ».

هذا ممَّا يُبيِّن فضل الصلاة وكثرة السجود، طبعًا ليس السجود المجرد، إنما السجود في الصلاة.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». يعني أكثر من الدعاء في صلاتك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي» -هذا مما يبين فضل الصلاة- «ويَقُولُ: يَا وَيْلَهُ، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَعَصَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ».

وعن فاطمة بنت الحسين: أن رجلًا قال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني من أهل شفاعتك. قال: «أَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». يعني كثرة الصلاة.

الفائدة التاسعة عشرة مما يدل على عظم قدر الصلاة: أنها كانت آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الإمام المروزي: «لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه، فصار إلى الحال التي انكسر فيها لسانه، لم يكن له وصية أكثر من الصلاة»

قال أنس رضي الله عنه: «كَانَتْ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ، فَلَا يَكَادُ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ: الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

الفائدة العشرون مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن مُصلّى المؤمن يبكي عليه بعد موته، مصلّى المؤمن وأماكن السجود التي كان يسجد فيها في الأرض تبكي عليه عند موته.

قال الإمام المروزي: «ثم جعل البقعة التي يصلي عليها المؤمن هي الباكية عليه دون سائر البقاع». قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾.

عن علي رضي الله عنه أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَى عَلَيْهِ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَبَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ». بابه الذي يصعد إليه عمله، إذا مات يبكي عليه، وتبكي عليه الأرض التي كان يسجد عليها. قال: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَى عَلَيْهِ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ وَبَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ».

وعن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس رضي الله عنهم، أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: «نعم، إنه ليس من الخلائق أحد إلا له باب من السماء، أو باب في السماء، يصعد فيه عمله وينزل فيه رزقه، فإذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله فيها ويصلي فيها، وبكى عليه بابه الذي كان يصعد فيه عمله.

قال: وأما قوم فرعون فلم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تَبْكِ عليهمُ السماءُ والأرضُ»، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾.

الفائدة الحادية والعشرون مما يدل على عظم قدر الصلاة: شهادة الله تبارك وتعالى لمن أقام الصلاة بالإيمان.

يقول الإمام المروزي: «وشهد الله بالإيمان لمن أقام الصلاة لربه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ». ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

هذا الحديث وإن كان في إسناده ضعف، لكن معناه صحيح، والآية تدل على هذا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

الفائدة الثانية والعشرون مما يدل على عظم قدر الصلاة: أن الله تبارك وتعالى سمّى الصلاة إيمانًا.

قال الإمام المروزي: وسمّاها الله إيمانًا وإسلامًا ودينًا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا لا ندري ما نقول في الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

الصلاة في أول الأمر يا إخوة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس، وظلوا على ذلك فترة طويلة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو من الله أن يحوله إلى الكعبة، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

فهناك صحابة ماتوا قبل تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتساءلوا:

طيب، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، ما حال صلاتهم؟

فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس. فسمّى الله الصلاة إيمانًا

وعن السُّدِّي أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: «صلاتكم قِبل بيت المقدس».

يقول: «إن تلك كانت طاعة وهذه طاعة، يعني صلاتكم إلى بيت المقدس صلاة مقبولة، وصلاتكم إلى الكعبة صلاة مقبولة».

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية الكلام على «تعظيم قدر الصلاة».

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا وإياكم علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، إنه الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأحد ٢٤ / شوال / ١٤٤٧هـ

١٢ / إبريل / ٢٠٢٦م